مؤتمر السيرة الدولي
الاتجاهات المعاصرة في علم السيرة النبوية المناهج والتحديات والآفاق
الجهة المنظمة: المركز الدولي للتميز في دراسات السيرة- مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد
التاريخ: 23-24 أفريل 2025
المحور 11 : دور السّيرة النبوية في بناء السّلام وإعادة البناء الاجتماعي وتحقيق المَصالحة
عنوان المداخلة :

آليات استيعاب الآخر في ضوء السّيرة النبوية ودورها في إحلال السّلام العالمي - دراسة تحليلية للمواقف النبويّة في العهد المدني -

الدكتور: قول معمر - koul maamar
جامعة الوادي، كلية العلوم الإسلامية، الوادي/ الجزائر
University of El-Oued, Faculty of of Islamic Science, El-Oued/Algeria
Maamar-koul@univ-eloued.dz ORCID ID: 0000-0002-1531-0197
هاتف: 00213699759323

مُقدّمة :

تُعتبر السيرة النبويّة إضاءة لحياة سيدنا محمد ρ وهديه وسجلّا تاريخيا وروحيّا لدعوته ودستورا شاملا لدولته الإسلاميّة التي توجت في المدينة المنورة، أين أرسى الرسول الأعظم دعائم دولة قائمة على العدل والمساواة، فكانت أنموذجا للتثاقف والحوار والعيش المشترك والأمن والأمان والحبّ والسّلام طيلة عشر سنوات كاملة تبدأ بهجرته وتنتهي بانتقاله إلى الرّفيق الأعلى، إذْ تُطلعنا سيرة النبي ρ في هذه المرحلة على أبرز الأعمال السياسية والروحيّة والدينية والاجتماعية التي قام بها النبي ρ ، ومن أبرزها بناء المسجد باعتباره معلما حضاريا وثقافيا وروحيّا، حيث كان له دور كبير في غرس بذرة الإيمان وتزكية النّفوس ومقرّا لحلّ النّزاعات والخلافات ومنبرا للوعظ والتّذكير ومدرسة لتغذية العقول وبناء المعارف ومساحة لمعراج الرّوح والتأمل والعبادة، ومن أبرز أعماله ρ في هاته المرحلة أيضا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث أضحى الضيف صاحب الدّار، وأضحى المالك شريكا بإرادته لغيره يُشاركه ماله وداره ويهبه إحدى زوجاته، وهذا مفهوم جديد كليّا من النّاحية الرّوحية والاجتماعيّة لم تعرفه الحضارات من قبل، أين تتجسّد فيه المعاني الإنسانية السّامية وتغيب فيه الأنانية والفردانية، وبهذا ضمّن النبي ρ الدّين مفهوما جديدا، قائما على التضامن الإنساني والأخوّة الإيمانية، ومن أبرز أعماله ρ كتابة وثيقة المدينة المنوّرة، وهي أولّ بذرة للدّولة المدنية الحديثة، وهي تجسيد لفكرة المواطنة وتنظيم لحياة

النّاس وعلاقاتهم فيما بينهم سواء بين المسلمين أنفسهم أو بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، وفي هذا الصّنيع النّبوي مضمون إنساني وكوني وعالمي حيث تُعتبر تجسيدا للدولة الحديثة التي تلتقي فيها الرّحم الإنسانية والعيش المُشترك مع مساحة كبيرة من الحريّة والاختيار.

هذه أبرز أعماله ρ من خلال سيرته العطرة وكلّها تجلّي للأفق الاستيعابي للنبي ρ، وتجسيد عمليّ بكونه رحمةً للعالمين، وتأكيد لخلُقه العظيم.

✓ **إشكاليّة الدّراسة:**

على ضوء ما سبَق بسْطُه نطرح الإشكاليّة التّاليّة: ما موقعُ تعاليم النبي ρ في حضارتنا الرّاهنة؟ وما هي أبرز الانسدادات والمآزق التي يشهدها عالم اليوم – الغربيّ والإسلاميّ- مع انسداد قنوات التّواصل والحوار، وتصدّع جسور التّواصل بين العالميْن، وإلى أيّ مدى يُمكن لسيرة النبي ρ وتعاليمِه في المدينة المنوّرة أن تكون حلّا لصراعات اليوم وأُفُقًا استيعابيّا في عالمٍ متعدّد الأجناس والأعراق والثّقافات والدّيانات، وهل يُمكن أن تكون سيرةُ النبي ρ ورقةً حضاريّة وأخلاقيّة تُسهمُ في تدبير الاختلاف وتحقّقُ السِّلم والسّلام العالمي بين الشّعوب؟

✓ **هيكل العمل:**

1.أزمة الحضارة الحديثة واستمطار الأخلاق المحمّديّة (تشخيص أمراض العالم النفسية والاجتماعية والفكرية)

2. الأعمال الدينية والسياسية والرّوحيّة والاجتماعية التي قام بها النبي ρ في العهد المدني وآفاقها الاستيعابية

1.2. الأعمال الدّينيّة ومضامينها الاستيعابيّة

2.2. الأعمال الاجتماعية ومضامينها الاستيعابيّة

3.2. الأعمال السّياسيّة ومضامينها الاستيعابيّة

خاتمة

1.أزمة الحضارة الحديثة واستمطار الأخلاق المحمّديّة (تشخيص أمراض العالم النفسية والاجتماعية والفكرية)

تُحتّم علينا دراسة السيرة النّبوية العطرة لسيّدنا محمّد ρ على ضوء مُعطيات الرّاهن أن نستدعيَ حياة سيّدنا محمّد ρ إلى واقعنا، لا أن نتركَ هذا الواقع ونذهبَ إلى ذلك الزّمن، إذْ يُحتّم علينا التّعامل مع مُعطيات اللّحظة الرّاهنة صياغة خطابٍ يتوافقُ وتطلّعات الإنسان المعاصر، ويخاطبُ فيه زمنه وبيئته ومنظومته المعرفيّة وواقعه السّياسي وتركيبته النّفسية والاجتماعيّة، وهذا الامتداد الزّمني من لحظة مبعث سيّد الوجود ρ إلى يومنا هذا تُشكّل تطوّرا رهيبا ومزيجا من التّراكمات والأحداث والتطوّرات الرّاهنة، على مُختلف الأصعدة السّياسيّة والمعرفيّة والدّينيّة والرّوحيّة، ناهيك عن التطوّر التّكنلوجي الرّهيب الذي جعل العالم اليوم غُرفةً واحدة، وهو ما أدّى إلى إذابة كثير من الحواجز اللّسانيّة والعِرْقيّة والجغرافيّة، وانتقلَ العالمُ اليوم إلى لحظة راهنة جديدة تجاوزت إنسان السّوبرمان الذي نادى به فريدريك نتشه إلى إنسان الذّكاء الاصطناعي وعصر الرِبوتات، وهذا كلّه يُحتّم علينا تشخيص اللّحظة الرّاهنة وتسليط الضوء عليها لنعرفَ أسسَها وركائزها، ونقفَ على إفرازاتها وأدوائها، ونتعرّفَ على أبرز مآزقِها، ونبحثَ بحثًا روحيّا عميقًا في سيرة وحياة سيّدنا محمد ρ النبيّ الرّسول والإنسان والقائد والزّوج ونستلهمَ منها الحلول المُنجيّة للإنسانية المعاصرة، فما هي صورة حضارة الرّاهن؟ وما أبرز مرتكزاتها؟ وما هي أبرز

المآزق التي وقع فيها الإنسان المعاصر؟ وما هي أبرز الحلول التي يُمكن استلهامها من سيرة سيّدنا محمّد ρ وما هي آفاقها في توجيه الحضارة الرّاهنة؟

بالتأمّل في راهن اليوم يتجلّى لنا عالمان، عالمٌ غربيّ بسطَ نفوذَه وهيمنتَه على العالم الإسلاميّ، منذ مطلع القرن الثامن عشر، واستطاع أن يكوّن – مع مرور الزّمن – قوّة اقتصاديّة وسياسيّة وامتدادا في جغرافيّة العالم الإسلاميّ، فتوسّعت أراضيه وامتدّ نفوذُه، واستفاد من خيرات الأمم المغلوبة واستنزف طاقاتها، كما استفاد من آدابها وعلومها التي تُرجمتْ إلى مختلف اللغات الأوروبيّة، فظهرت نهضة غربيّةٌ نشهد تجليّاتها اليوم في مختلف المنظومات المعرفيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة، وفي الضفّة الأخرى في أقصى الشّرق قامت أيضا حضارات وأمم، استطاعت أن تبنيَ نفسها في صمتٍ ، فرضتْ وجودها وقوّتها وأسمعتْ كلمتها اليوم، ومن جهة أخرى نجد عالمًا إسلاميّا تمتدّ أراضيه ، بما يقارب تسعًا وستّين دولةً، تمتدّ في قارات ثلاث، في أوروبّا (03 دول)، وفي أفريقيا (28 دولةً) ، وفي آسيا (32 دولةً)، وفي أمريكا الجنوبيّة دولتان (02 دول).[1]

لكنّ هذا الامتداد الشّاسع للعالم الإسلاميّ وما يزخر به من موارد وخيراتٍ جعلتْه محلّ أطماع الدّول العُظمى التي وظّفت التّبايُنات الإثنيّة والمذهبيّة والحياة السّياسيّة لإضعافه وإحياء بذرة الصّراع بين أبنائه، وهذا ما ولّد عالمَيْن في مشهد اليوم، عالمٌ غربيّ يمتلك القوّة بمختلف تمظهراتها، وعالم إسلاميّ ممزّقٌ مُجزّأ يُراهنُ على بقائه واستمراريته من خلال ما تبقّى من قلاعِه وحصونِه الدّاخليّة (الأسرة- المدرسة- المسجد- وبعض الجهود الإعلاميّة)، هّذا الحضور الحضاري الغربيّ أفرز نوعًا من الغرور والعُجْب والاعتداد بالنّفس ، وهو الذي يُلهمُ المدنيّة الحاضرة، وما يحدث اليوم من صراع بين قوى متعادية يدفع ثمنه الضعفاء وتهان فيه الإنسانية والآدمية وتهدر فيه العدالة ويغيب فيه الإله هو ثمرة المدنية الغربية، وهو إحدى المُشكلات التي عالجها بديع الزّمان سعيد النُّورسي - رحمه الله- في حديثه عن أسس المدنية الغربية، وهي في نظرِه خمسة أسس :

1. القوّة كنقطة استناد وهذه شأنها الاعتداء.
2. المنفعة وهذه شأنها التّزاحم.
3. الجدال والصّراع كدستور في الحياة وهذه شأنها التّنازع.
4. العنصرية كرابطة بين المجموعات البشريّة وهذه شأنها التّصادم.
5. إسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درجة الحيوانية الكلبية وهذا فيه مسخ معنوي للإنسان، فهذه الدّساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنيّة الحاضرة جعلتها عاجزة - مع محاسنها - عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية الى شقاء وتعاسة وقلق.[2]

إنّ هذه الأسس مُرتكزات للعالمَين، العالم الغربيّ كقويّ فاعل ومتسيّد، والعالم الإسلاميّ كمنفعِلْ ومواجِه، وهي أسس تجعل من القوّة مرتكزا .تُبادُ من أجله الكرامة الإنسانية .وتُهدر العدالة .ويكون الانتصار فيه للأنا على حساب الأسرة الإنسانيّة والرّحم الواحدة، وهي أسسٌ

---

[1] أحمد حرّان تاج السرّ، حاضر العالم الإسلاميّ، إشبيليا للنّشر والدّعاية والإعلان، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط01، 2001، ص 10-11 بتصرّف.

[2] انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، استنبول،ط3، 1993م، ص472 بتصرّف.

أثمرتْ العداء والصّراع بين الطّرفيْن وغذّت خطاب الكراهيّة وجفّفتْ منابع الرّحمة والسّلام والأخوّة الملّية والمذهبيّة، وقطعَتْ جسور التّواصل الملّي والمذهبيّ، وأشعَلتْ نيران الحروب النوويّة التي ألحقَتْ الدّمار المادّي واليأس النّفسيّ وخلّفت الأمراض والفقر، وجعلت الأرضَ بُركانا يثور كلّ لحظة يعصِفُ بكلّ قيم الرّحمة والسّلام والإنسانيّة..

هذه الأسس هي التي تسوق البشريّة اليوم إلى الضّلالة والتّعاسة .وجعلت الإنسان يهوى إلى أسفل السّافلين ، وأضحت النّزعة الماديّة لحضارة الرّاهن رافدا يُغذّي خطاب الكراهيّة والعداء في شعوب الشّرق والغرب على حدّ سواء، وتراجعت المنظومة القيميّة الأخلاقيّة المؤسّسة على الحوار والتّعايش والسّلام والمحبّة، هذا المشروع القِيميّ الأخلاقيّ هو ما دعا إليه القرآن الكريم في القاعدة الذّهبيّة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13)، وأرسى النبيّ ρ هذه القاعدة في قوله: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[1]، والّتتميم هنا على قول الأستاذ طه عبد الرّحمن له معنيان: الإيصال إلى الغاية من الشّيء، وثانيهما : الإيصال إلى غاية الشّيء، وصالحُ الأخلاق أو كمالُها، يستلزمُ الوصولَ إلى الغاية منها، إذْ تقصدُ الأخلاقُ بموجب كمالها، ترقيةَ الإنسان في مدارج الكمال، وهذا متناغمٌ مع القاعدة التي أرساها الوحيُ الشّريفُ في قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (المائدة:03)، والإتمامُ والإكمالُ هنا في الآية إيصال الشيء إلى غايته بحيث لا مزيدَ عليه.[2]

وهذا المعنى هو تجسيد لحقيقة ختميّة النبوّة التي تعني بعبارة دقيقة الإجابة اليقينيّة عن الأسئلة التي طرحها الإنسان على مرّ العصور والمتعلّقة بالله والعالم والإنسان، (وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (الأحزاب: 40)، وقد قدّم محمّد إقبال – رحمه الله - رؤى روحيّة عميقة متعلّقة بالنبوّة جديرة بأن تُسْتثْمرَ، فيرى في كتابه تجديد الفكر الدّينيّ "أنّ النبيّ هو الكائن المتناهيّ الذي يغوصُ إلى أعماق حياته الرّوحيّة اللّانهائية، حيثُ يتلقّى من فيض الوحي الإلهيّ، لا ليبقى هناك متأمّلاً، وإنّما ليطفو مرّة أخرى صاعدا إلى أعلى بقوّة دافعة جديدة فيحطّم القديم ويكشفَ عن توجّهات جديدة للحياة."[3]

ولا غرابة أن نجد محّمّد إقبال يعتبر النبيّ محمداً ρخالقًا لعصر جديد:

نافخُ الرّوح بدنيا الوهَنْ خالقُ العصْر جديدُ السُّنَنْ[4]

وفي ديوانه الشّعري " وماذا نصنع يا أمم الشّرق " قصيدة إلى الأمّة العربيّة والإسلاميّة، بيّن من خلالها محمّد إقبال مركزيّة التّعاليم النبويّة في معالجة إشكالات العصر، وتحقيق نهضة الإنسانيّة وسعادتها، وتجفيف منابع الصّراع العالميّ وتحقيق الوحدة والتّعاون في إطار المُشترك الإنسانيّ، وقد صاغها السيّد ماجد الجوريّ نثرا، وممّا جاء فيها:" إنّ نفَسَ ذلك الأميّ أعاد على هذه الصّحراء الخصبَ والنّموّ، فأنبتتْ الأزهارُ والرّياحينُ، إنّ الحريّة نشأت في أحضانه، وإنّ حاضر

---

[1] أخرجه أحمد في مُسنده عن أبي هريرة τ ، مُسند أحمد بن حنبل،تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة،ط 01، 2001، ج 14، ص 513، رقم: 8952.

[2] انظر في هذا : طه عبد الرحمن، السّيرة النّبويّة والتّأسيس الأخلاقيّ، مركز نهوض للدّراسات والبحوث، ط 01، 2024، الكويت+ لبنان، ص 372 وما بعدها بتصرّف.

[3] محمّد إقبال، تجديد الفكر الدّيني في الإسلام ترجمة: محمّد يوسف عدس،دار الكتاب المصري+ دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ط2011، ص 205 وما بعدها بتصرّف.

[4] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز،ترجمة: عبد الوهّاب عزّام،مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، ط 2012، ص 105.

الشّعوبِ ليس إلا وليدَ أمسه، إنّ الجسد البشريّ كان بلا قلبٍ ولا روح، فأعطاه القلبَ والرّوحَ، وكشفَ اللّثام عن جمال وجهه، إنّه حطّم كلّ صنمٍ قديمٍ، وأفاضَ الحياة على غُصْنٍ ذاوٍ من أغصانِ العلومِ والمدنيّة، وأنجبَ أبْطالًا وقادةً مؤمنين."[1]

إنّ الإنسانيّة المعاصرة التي أثقلتها المادّة وقطّعت أواصرَها الحروبُ والصّراعات، أضْحتْ جسدًا بلا روح وقِشْرًا بلا لبّ، ، لذا يعتبرُ محمّد إقبال أنّ نبْضَ روحها وحياتها من تعاليم سيّد الوجود وخاتم الأنبياء والرّسل، فيقول في صلصلة الجرس:

فباسم محمّد شمسِ البرايا أُقيمتْ خيمةُ الفلكِ المنيرِ
تلألأ في الرّياض وفي الصّحاري وفوق الموجِ وفي السّيلِ المغيرِ
ونبضُ الكون منه مستمِدٌّ حرارتَه على مرّ العصورِ
ومن مُراكش يغزو صداهُ ربوعَ الصّين بالصّوتِ الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا النّور إلّا ضميرُ المسلم الحرّ الغيورِ[2]

وفي ديوان فريد الدّين العطّار النّيسابوري منطق الطّير مدْحًا للنبيّ محمّد ρوبيانًا لمنزلته الرّوحيّة ودورِ تعاليمه في حلّ مُشكلات الإنسانيّة المعاصرة:" وإنْ كان لإنسانٍ أن يتكلّم فهو أنت، وإنْ تقلْ كيفَ رحلْتَ عن هذه الدّنيا، وكيفَ عُدْتَ، لحللْت مشكلاتنا واحدةً واحدةً، وما بقيَ في قلوبِنا أدْنى ريبةٍ."[3]

إنّ ما أورده العطّار منذ زمن شهادةٌ سجّلها كبارُ المستشرقين والغربيين الذين استوقفتهم الرّسالة الإنسانيّة للنبي ρ ، وهذا توماس كارليل في كتابه الأبطالُ عقَد فيه محاضرةً عن نبيّ الإسلام، وممّا جاء فيها:" إنّ ما أودعَ هذا الدّين من القواعد هو الشّيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به، وهذا الشّيء هو روح جميع الأديان، روحٌ تلبسُ أثوابًا مختلفةً، وأثوابًا متعدّدةً وهي في الحقيقة شيء واحد، وباتّباع هذه الرّوح يُصبحُ الإنسانُ إمامًا كبيرًا لهذا المعبد – الكون-."[4]

وهذه الرّوح التي أشار إليها كارليل هي الرّوح العمليّة التي تُجلّي إنسانية الإنسان وتُبرز كرامتَه وتُعلي قدره بين الكائنات، لا مُسْتعْبِدًا لغيره بل فاعلا ومنفعلًا، وهذه الرّوح الخلّاقة التي أودعها النبيّ في رسالته جعلت الفلَكيّ الرياضيّ الأمريكيّ مايكل هارت في كتابِه الخالدون المائة يجعلُ النبيّ محمّدًا في المقدّمة، معلّلا ذلك بأنّ محمّدا هو المسؤول الأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشّريعة وقواعد السّلوك الأخلاقيّ، وأصول المعاملات بين النّاس في الدّين والدّنيا.[5]

إنّ رسالة النبيّ محمّد ρ يُمكنها قيادة البشريّة اليومَ لأنّها رسالةٌ جامعة لعالم الغيب والشّهادة، رسالة تجمعُ جميع الأجزاء المتفرّقة في بوتقة واحدة (الدنيا والآخرة- الفرد والمجتمع- الدّين والدّولة-

---

[1] محمّد إقبال، ديوان محمّد إقبال الأعمال الكاملة، ترجمة: سيّد عبد الماجد الجوريّ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 03، 2007،ج02، ص 377-378.

[2] محمّد إقبال، ديوان محمّد إقبال الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ج 01، ص 109.

[3] فريد الدّين العطّار النّيسابوريّ، منطق الطّير، ترجمة: بديع محمّد جمعة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط 2002، ص 161.

[4] توماس كارليل، الأبطال، ترجمة: محمّد السّباعيّ،المطبعة المصريّة بالأزهر، مصر، ط 03، 1930، ص 83.

[5] مايكل هارت، الخالدون مائة أعظمُهم محمّد رسول الله، ترجمة: أنيس منصور، المكتب المصريّ الحديث، بدون تاريخ، ص 17بتصرّف.

المادّة والرّوح- الأرض والسّماء)، هذه الثّنائيات جميعا تهدفُ إلى حقيقة جامعة وهي تحقيقُ السّلام العالميّ للإنسانيّة جمعاء، مع مُراعاة التّباينات والاختلافات المليّة والمذهبيّة والإثنيّة والجغرافيّة، طالما المقصدُ واحدٌ وهو الرّحم الإنسانيّة الواحدة، والرّوح باعتبارها الموطن المشترك لجميع الشّعوب، وهذا ما عجزَت عنه المدنيّة المعاصرة لفصلِها بين هذه الثّنائيات، لذا يرى بديع الزمان سعيد النّورسي أنّ رسالة النبيّ وتعاليمَه : "لا تفصل الدنيا عن الأخرى، إذ هي المطية التي نمتطيها للوصول إلى أهداف هي أبعد من الموت، فإذا كان هناك بعض المجتمعات الحديثة اليوم تبني المجتمع لغايات اجتماعية بحتة، ولحياة أرضية بحتة، فإن مجتمعنا يبني لما بعد الحياة، كما يبني لأهداف يحققها لحياة كل فرد، وهذا بالطبع يتطلب من المسلم ومن الغربيّ جهدا أقدرَ من جهد الآخرين وجهادا أكبر من جهادهم"[1].

يُمكن أن نجعلَ ما أوردته السيّدة المستشرقة أنيماري شيمل في كتابها وأنّ محمّدا رسول الله في حديثها عن النبي ρ نقلا عن نجم الدّين داية الرّازي كخُلاصة لهذا المدخل : "من زمان إلى عهد عيسى عَجَن كُلُّ نَبِيٍّ من الأنبياء عَجِينَةَ الدِّين بطريقة مختلفةٍ، لَكِنّ التَّنُّور الْمُتَّقِد الممتلئَ بنار المحبّة كان لمحمد ρ وإنّه في تنّور المحبّة هذا خُبِزَ خُبْزُ الدِّين على مدى ثلاث وعشرين سنة ثم أخرجه من تنور المحبّة وعلّق على باب حانوته إعلانا يقول : بُعِثتُ للأحمر والأسود .وهذا الخبزُ هو الذي أشبع الجائع وصار مبعث البهجة لأولئك الذين ينتسبون إلى أمّة محمّد."[2].

2. الأعمال الدّينيّة والسّياسيّة والرّوحيّة والاجتماعيّة التي قام بها النبي ρ في العهد المدنيّ وآفاقها الاستيعابية

إنّ استلهام الحلول من سيرة النبي ρ في مرحلتها المدنيّة لمُشكلاتِ الرّاهن، هو وُقوفٌ عند الرؤية النّاضجة والمُكتملة لرسالة النبي ρ في مرحلتها المدنيّة، ومُحاكاة لتجربة الدّولة الإسلاميّة التي تأسّستْ في العهد المدنيّ، حيثُ امتزج فيها العمل الدّيني مع السّياسيّ والسّلوك الفرديّ مع الاجتماعيّ، وحضور الأنا مع الآخر في ظلّ التّعايش مع أبناء الدّيانات الأخرى، فهي تجربةُ حيّة في التّعامل مع مُختلف المعطيات الفرديّة والأسريّة والاجتماعيّة والدّوليّة، ورؤى تربويّة وروحيّة عميقة في حلّ المشكلات النّفسيّة (القلق- الغرور-العُجْب-الكبْر...) والمشكلات الأسريّة (الخلاف-النّزاع...) والمشكلات الاجتماعيّة (التّدابر-الاختلاف-الصّراع-الطّائفيّة-المذهبيّة-أهل الذمّة...) والمشكلات الدّوليّة(الحروب-الاعتداء- القضايا المُشتركة-التّحالفات...)، وعلى هذا سنقف مع سيرة النبي ρ في مرحلتها المدنيّة بالتّركيز على الأحداث والقضايا الهامّة التي يُمكن أن نستلهمَ منها الحلولَ لواقعنا الرّاهن، دون مُراعاة التّرتيب الزّمني لهذه الأحداث أو التأريخ لها، فتلك محطّة بحثيّة خاصّة، إنّما ننطلقُ من واقعِنا ومُشكلاتنا المعاصرة لنبحثَ لها عن حلولٍ من التّعاليم النبويّة.

1.2. الأعمال الدّينيّة ومضامينها الاستيعابيّة

---

[1] بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، استنبول، ط1993،1م، ص**545** بتصرف.

[2] أنيماري شيمل، وأنّ محمّداً رسولُ الله – تبجيل النبيّ في التّديّن الإسلاميّ- ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط01، 2017، ص 103.

كانت هجرة النبي ρ إلى المدينة المنوّرة استكمالًا لرسالة النبي ρ، وكانت جميعُ أعماله ρ تشريعًا، لكن في هاته المرحلة الجديدة اصطبغ التّشريعُ بصبغة مدنيّة حديثةٍ، أسهم في بلورتها استقرارُ النبي ρ بالمدينة المنوّرة، وكانت أبرز الأعمال الممهّدة لهاته الدّولة الحديثة بناء المسجد

ورد مصطلح المسجد بمفرداته (سَجدَ- يسجدُ- اسْجد- سُجودًا- مَسْجدا ...) 92 مرّة في القرآن الكريم، وأكثر الصّيغ ورودًا هي كلمة مَسْجِدْ، إذ وردت 20 مرة.[1]، وأغلب السّياقات تنصرف إلى المسجد الحرام لمكانته في غرس العقيدة ودعامة التّوحيد، وقد عبّر عنه الله سبحانه وتعالى بكونه أوّل معلم دينيّ في قوله تعالى: [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا] (آل عمران: 96-97).

وقدْ أسهم المسجدُ في الإسلام بحظّ وافر في إرساء القيم وتربية النّفوس ونشر العلوم والمعارف وتحقيق رسالة الإسلام الكبرى المتمثّلة في السّلام العالميّ، وبناء النّفوس التي ستكون سفيرةً لهذا السّلام، ومن مقاصد تأسيسه: إظهار شعائر الإسلام وربط النّاس بربّ العالمين، وتنقّية القلوب من الأمراض، ومصدرًا للتّوجيه الرّوحي والمادّي، ففيه مساحةٌ للعبادة، وفضاءٌ للعلم، وندوةٌ للأدب.[2]، فلمْ يكنْ المسجدُ مجرّد مكان للعبادة، فالأرضُ كلُّها وفق التّعاليم المحمديّة مسجدٌ للمؤمن، لقوله ρ : «وجُعِلَتْ لي الأَرضُ مَسجداً وطَهوراً »[3]

وفي كتاب فقه السّيرة لمحمّد سعيد رمضان البوطيّ – رحمه الله- وقفة مع أبرز الدّلالات لبناء المسجد النّبوي ورسالته الرّوحيّة وآفاقه الاستيعابيّة، يُمكن تلخيصُها فيما يلي: إشاعةُ آصرة الأخوّة والمحبّة بين المسلمين وإذابةُ الفوارق الاجتماعيّة من جاه ومال – إشاعةُ روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين في مختلف شؤونهم وأحوالهم – صهرُ أشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الرّاسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حُكْمُه وشرعُه - إزالةُ الشّهوات والأهواء- التأليف بين العناصر القبليّة المختلفة التي نافرتْ بينها النّزاعات الجاهليّة.[4]

إنّ مركزيّة دار العبادة حاضر في الدّيانات كلّها، وقد احتفى القرآن الكريم بذكر هاته الدّور في قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) (الحجّ: 40)

والسّؤال المركزّي الذي ينبغي طرحُه في هذا السّياق، ما هو دور المسجد في إحلال السّلام العالمي اليوم من خلال سيرة سيّدنا محمّد ρ؟

إنّ دور المسجد اليوم ودُورَ العِبادة عموما – باعتبار الخريطة الدّينيّة للعالم - هو كونُها توحّد جميع البشر، وتجعلُهم متّجهين إلى إله واحد، رُغم اختلافهم وتبايُنهم، وفي قصّة الحضارة لويل ديورانت معنى لطيف، جاء فيه: "وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة، وما أعظم وأجلّ أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جلّ جلاله في سكون الليل، وما أحلى وقع صوت المؤذّن على

---

[1] محمّد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ، دار الكتب المصريّـــة، ط 1364 هـ، ص 244.

[2] محمّد الغزاليّ، فقه السّيرة ،دار القلم، دمشق، سوريا، ط 01، 1427 هـ، ص 188.

[3] أخرجه البخاري عن جابر τ ، كتاب التيمّم، محمّد بن إسماعيل البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط01، 1422هـ، ج01، ص 74، رقم: 335.

[4] محّمد سَعيد رَمضان البوطي، فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، دار الفكر،دمشق،ط 25، 1426 هـ، ص 144. وانظر أيضا: المباركفوريّ صفيّ الرحمن، الرّحيقُ المختوم، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطر، بدون تاريخ، ص 185..

الآذان، آذان المسلمين وغير المسلمين، وهم يدعون النّفوسَ الحبيسةَ في الأجسام الأرضيّة من فوق آلاف المساجد أن تتوجّه إلى واهب الحياة والعقل، وتتّصل به ذلك الاتّصال الرّوحي الجليل."[1]

ولمّا كان للمسجد هذا الدّور الرّوحي الكبير في تحقيق وحدة التوجّه لدى المُسلمين، كان بإمكانه أيضا أن يُسهم في علاجات مشاكلهم السّياسيّة والاجتماعيّة، وهو الدّور الذي قام به في عهد النبي ρ، ونرى أنّ هذا الدّور اليوم في عالمنا الإسلاميّ منوطٌ بالمسجد الحرام، باعتباره رمزا للجامعة الإسلاميّة، حيثُ يلتقي النّاس من كلّ فجٍّ عميق، ناهيك عن قادة الدّول ودُعاتِه، وعليْه يُمكن استثمارُ المسجد الحرام كمنارة لإرساء السّلام ونشر المحبّة وقيم التّعاون والحوار، وفضّ النّزاعات بين الدّول، وحلّ مشاكل الصّراع الطّائفي والإثني، وقد تناول العلّامة محمّد إقبال في ديوانه الشّعري الأسرار والرّموز مركزيّة البيت الحرام والدّور الذي يُمكن أن يلعبه:

هكذا سُنّة ميلاد الأممْ مركزٌ فيه حياة تنظمْ
إنما المركز روح الدّائره نقطة فيها محيطٌ ضامره
ومن المركز للقوم نظامْ ومن المركز للقوم دوامْ
نُقطة المركز منّا الحرمْ لحنُنا والوُجْدُ فينا الحرمْ
وحّدَ الملّةَ طوْفٌ حولهُ فهي صُبْحٌ قد حوى صدر لهُ
وُحّدتْ في حسْبِه كثْرَتنا أُحكمتْ من وحدةٍ قوّتنا
إنّ في الجمعِ حياةَ الأممْ إنّ هذا الجمعَ سرّ الحرمْ
أيّها المسلمُ يا ذا البصرْ قومُ موسى عبْرةٌ فاعتبرْ
زهدوا في مركزٍ قد جمعا فتراهم في البرايا قِطعا[2]

فتأمّل فيما أورده محمّد إقبال في الدّور الذي يُجسّده البيت الحرام في واقعنا اليوم، وهو واقعٌ الصّراع والطّائفيّة والمذهبيّة والعنصريّة، على طول امتداد العالم الإسلاميّ، من طنجة إلى جاكارتا، وهو ما أسهم في إيقاف عجلة التّنميّة وقطعِ جسور التّواصل بين دول العالم الإسلاميّ اليوم، ففي الاجتماع في رحابِ البيت الحرام بين المُسلمين معنى روحيّ، فهو يجعلُ الكثرةَ وحْدةً بتعبير إقبال، لذا يُلفُتنا إقبال إلى خطرِ التفرّق والتّشرذم، من خلال دعوته إلى الاعتبار بأحوال الأمم السّابقة، قوم موسى الذين زهدوا في الاجتماع في مركز جامعٍ فعاشوا في التّيه، وهو معنى مُقتبس من قوله تعالى:(يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ) (المائدة:26)، ويُمكن أن يكون موسم الحجّ مؤتمرا إسلاميّا وعالميّا حقيقيّا، يُحقّقُ منافعَ دينيّة روحيّة ودنيويّة، كالتّعاون والتّضامن والحوار والمحبّة والسّلام، وهذه هي مقاصدُه التي جاء بها الوحيُ في قوله تعالى:(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)(الحجّ: 27-28).

وفي كتاب سؤال الأخلاق لطه عبد الرحمن دِلالة روحيّة وتربويّة لرمزية المسجد والقِبْلة والصّلاة عند المسلمين باعتبارها تشريعًا نبويّا ووحيا إلهيّا، من هاته الدّلالات الدّلالة المكانيّة: فالمسجدُ مكان محسوسٌ، ولمّا كان مكانًا، كان محتمِلا للجهات الأربع: فوق-أسفل-أمام-خلف-يمين-يسار، ولمّا كان المسجدُ الحرامُ قِبْلةً ارتضاها النبيρ كما جاء في نصّ الوحي(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) (البقرة:144)، كانت الكعبةُ – كرمز للمسجد- أشدّ دِلالة على معاني المكان والجهة، فشكْلُها

[1] ويل ديورانت، قصّة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرون، دار الجيل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،1988 م، ج 13، ص 120.

[2] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز، مرجع سابق، ص 97-98.

مُكعّبٌ، والمُكعّب ذو جهات وأوجهٍ متعدّدةٍ، وفي هذا إشارةٌ ودعوةٌ إلى الخروج من محسوسيّة القبلة إلى معقوليّة التعبّد، وهذا يؤكدّه قوله تعالى:(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (البقرة:177).[1]

ومن دلالات المسجد والقِبْلة -على قول طه عبد الرّحمن- الأخلاقُ الانفتاحيّة، فمن معاني القبْلة الاستقبالُ، وهو الجهة التي يتوجّه إليها المصلّي، ومن معانيها أيضا المقابلة، وهي مُوجّهة من الطّرفيْن، أحدهما يُقابل الآخر، وفيها يكون المُقابلُ خارجًا عن نفسِه مُنفتِحًا على المتوجّه إليه، متّسعا لحضوره، مُستعدّا للإقرار به، وعلى قدْر المتوجّه إليه تزداد قيمةُ الانفتاحِ عليه كما تزداد واجباتُه، والمتوجَّه إليه حسّا هو البيت الحرامُ، لكن عقلًا وشرْعًا هو الله، كان الأدبُ هو ألزمُ واجبات هذا التوجّه[2]، والأدب مع الله وفي حضرته أدبٌ مع خلقِه وعياله بالتّعامل معهم بمسلك الرّحمة والشّفقة والعدل والعفو والتّجاوز، وهو ما أرساه النبيρ في مسجدِه بالمدينة المنوّرة.

أمّا الدّلالة الثّالثة للمسجد والقبْلة كونُها ذات حمولة قيميّة اجتماعيّة، فأصحابُ القبلة أكثرَ من غيرهم قُدرة على التخلّق بأخلاق الجماعة المبنيّة على روح التّعاون والتّضامن[3]، وقد أشار محمّد إقبال إلى أهميّة المسجد وصلاة الجماعة ودِلالتها الروحيّة ودورها التّربويّ في كتابه تجديد الفكر الدّيني، ومُلخّص قوله أنّ الجماعة في المسجد يحدوهم أمل واحد ويجمعون أمرهم على هدفٍ واحد ويفتحون أعماق نفوسهم لنبضٍ واحد، كما تُحقّق هدفًا سيكلوجيّا فهي تُضاعف قوّة الإدراك وتُعمّق وجدانه، وأنْن تولّيَ وجهك شطر أيّ جهة ليس ضروريّا في روح الصّلاة والجماعة، فالمقصود تحقيق وحدة الشّعور، وتنمية الشّعور بالمساواة الاجتماعيّة، والقضاء على التميّز الطبقيّ والعنصريّ للمتعبدّين، لذا يتساءل محمّد إقبال قائلا: وأيّ ثورة هذه يمكن أن تحدثَ لو جعلنا الارستقراطيّ البَرهميّ المنكر في جنوب الهند يقف كتفا إلى كتف بجانب المنبوذ، فالشّكل الإسلامي للصّلاة في جماعة مؤشّر لتحقيق الوحدة اللازمة للبشر والقضاء على كلّ الحواجز التي تقف حائلا بين الإنسان وأخيه.[4]

وفي كتاب "فيه ما فيه" في الفصل الثّالث والعشرين - عبير المعشوق – يوضّح لنا مولانا جلال الدّين الرّومي هذا المعنى من خلال مجلس عقده وقد حضر جماعةٌ من غير المسلمين، وبدأوا في وسط كلامه يبكون تعبيرًا عن حالٍ ألمتْ بهم واعتراض تلاميذه عليه قائلين إنّ هذا الكلام يفهمه مسلمٌ واحدٌ من ألفِ مسلمٍ فما تفسير حالهم ؟ وبيان الرّومي أنّ الأصل في كلّ إنسانٍ أنّه مقرٌّ بوحدانيّة الله عزَّ وجل، وأنّه الخالق الرّازق فعندما يسمع أيّ إنسان هذا الوصف للحقّ يحصل له اضطرابٌ وشوقٌ وذوق، فهذه الكلمات هي عبير المعشوق فبالرّغم من اختلاف الطّرق فالمقصد واحد [5]،ويقدّم الرّومي مثالاً حيّا لتعدّد الطّرق واتّحاد المقصد بالكعبة وتعدّد الطّرق إليها، لكنّ

---

[1] انظر: طه عبد الرّحمن، سؤال الأخلاق مُساهمة في النّقد الأخلاقيّ للحداثة الغربيّة،المركز الثّقافي العربيّ، المغرب،ط01، 2000، ص 164 وما بعدها بتصرّف,

[2] سؤال الأخلاق مُساهمة في النّقد الأخلاقيّ للحداثة الغربيّة، مرجع سابق، ص 166.

[3] سؤال الأخلاق مُساهمة في النّقد الأخلاقيّ للحداثة الغربيّة، مرجع سابق، ص 166.

[4] محمّد إقبال، تجديد الفكر الدّيني في الإسلام، مرجع سابق، ص 153وما بعدها بتصرّف.

[5] جلال الدّين الرّومي، فيه ما فيه، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار الفكر المعاصر- بيروت + دار الفكر- دمشق، ط01، 2002،ص 152 وما بعدها. بتصرف.

القلوب جميعًا مرتبطة بالكعبة، فمجرّد وصول الجميع - كلٌّ من طريقه - إلى الكعبة يزول ما كان بينهم من اختلاف واحتراب، وعلى هذا الأساس فكلُّ النّاس في أعماق قلوبهم محبّون للحقِّ طالبون له.[1]

2.2. الأعمال الاجتماعيّة ومضامينها الاستيعابيّة – ميثاق المؤاخاة نموذجا-

قام النبيّ محمّد ρ بأعمال هامّة بعد هجرته إلى المدينة المنوّرة، كان أبرزَها مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار خصماءِ الدّار، أين أضحى الضّيفُ الوافدُ صاحبَ الدّار، وأضحى المالكُ شريكا بإرادته لغيره، يُشاركه مالَه ودارَه ويهبه إحدى زوجاته، وهذا مفهوم جديد كليّا من النّاحية الرّوحية والاجتماعيّة لم تعرفه الحضارات من قبل، أين تتجسّد فيه المعاني الإنسانيّة السّامية وتغيب فيه الأنانيّة والفردانيّة، وقد كان الأوس والخزرج أكبر القبائل والفصائل في المدينة المنوّرة، "ووقعتْ بينهما حروب كثيرة، أوّلها حرب سمير، وآخرها بِعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، وقد أسهم اليهود في إثارة النّزاع بين الفصيلَيْن- الأوس والخزرج- وتشجيع عوامل الفرقة بينهما، وإذكاء روح التحاسد، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم ."[2]

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف τ قال: «لمّا قدمنا المدينة آخى رسول الله ρ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إنّي أكثرُ الأنصار مالًا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيّ زوجاتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلّتْ، تزوجتَها»[3]

والسؤال المركزّي هنا متعلّق بهذا الميثاق الجديد الذي سنّه النبيّ ρ في المدينة المنوّرة كآلية من آليات تدبير الاختلاف، وكوسيلة استيعابيّة للقلوب والأفكار، وكمرهم لتجفيف منابع العداوة والكراهيّة، أين تحوّل العدوّ إلى صديق حميم، وهذا حقّقه النبي ρ بفضل ميثاق الإخاء الذي مُحيت فيه الأنانيّة، وفنيتْ فيه الفردانيّةُ ونمتْ بِذْرةُ الجماعة وذابتْ عصبيات الجاهليّة وسقطتْ فوارقُ النّسب واللون والوطن، وقُدّمت فيه المروءة والتّقوى.[4] فكيفَ نستفيدُ اليومَ في عالمنا الإسلاميّ من صنيعِ نبيّ الإسلام ρ ، في راهنٍ يسوده العداوةُ والبغضاء بين دول الجوار، بل بين أبناء الوطن الواحد، وتُمزّقهم العصبيّات والطّائفيّة، وهذا من أخطر الأمراض التي تُنهك جسدَ الأمّة الإسلاميّة اليومَ، في أواخر سنة1910م سافر الأستاذُ بديع الزّمان سعيد النّورسي إلى الشام ألقى خطبة بالجامع الأمويّ أسماها الخطبة الشامية[5]، وقد استمع إليه ما يقارب من مائة عالم ناهيك عن عشرين ألف شخص، لخّص فيها النُّورسي أمراض الأمّة الإسلاميّة في ست نقاط رئيسية أبرزُها :
1- حياة اليأس الذي يجده فينا أسبابه وبعثه، 2- موت الصّدق في حياتنا الاجتماعيّة والسّياسيّة، 3- حبُّ العداوة، 4– الجهل بالرّوابط التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض، 5– الاستبداد، 6– شيوع المنفعة الشخصية.[6]

والأساس الرّابعُ الذي ذكره النّورسي "الجهل بالرّوابط التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض" هو ما نفتقدُه في عالمِنا الإسلاميّ اليوم، في ظلّ الأحداث المعاصرة التي يشهدها العالم الإسلاميّ على

---

[1] أنظر: فيه ما فيه، مرجع سابق، ص 154 بتصرّف.

[2] أبو الحسن الندوي، السيرة النّبوية، دار ابن كثير، دمشق، ط12، 1425هـ، ص 260.وانظر أيضا: الرّحيق المختوم 167.

[3] أخرجه البخاري عن عبد الرّحمن بن عوف، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) (الجمعة:11)، رقم: 2048.انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، ج 03، ص 52.

[4] انظر: محمّد الغزالي ، فقه السّيرة، مرجع سابق، ص 190بتصرّف,

[5] توجد هذه الخطبة مطبوعة ضمن كليات رسائل النور، انظر: صيقل الإسلام، ص475.

[6] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، مطبعة سوزلر، استنبول، ط01، 1998م، ص115.

أراضيه وخيرُ دليل على ذلك، ومثاله الصّراعات البيْنيّة بين الإخوة الأشقّاء في اليمن وسوريا ولبنان والصّومال وليبيا والسّودان، وغيرها من الدّول الإسلاميّة الأخرى، ممّا يجعل نطرح سؤالا مركزيّا ماذا نستفيدُ اليوم من سيرة النبيّ ρ، وكيف يُمكن لميثاق الأخوّة الذي أرساه النبي ρ أن يكون درسًا نستفيد منه اليوم في تدبير الاختلاف بين الأشقّاء وآليّة استيعابيّة يُمكن أن نلمّ بها شتاتنا ونمدّ جسور التّواصل بيننا؟

إنّ ميثاق الأخوّة الذي أرساه النبي الأكرمρ حقيقةٌ أخبرَ بها القرآن الكريم : (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: 62-63)،وجاء في تفسيرها :"أي إنه تعالى جعلهم أمة واحدة متآلفة، متعاونة في مناصرتك، بعد ما كان بينهم من العداوة والبغضاء إثر منازعات وحروب طويلة في الجاهليّة، كما كان الحال بين الأوس والخزرج من الأنصار، ثم أزال الله كلّ تلك الخلافات بنور الإيمان."[1]، ولمّا كان نورُ الإيمان هو سرّ هاته الأخوّة وروحُها دعا القرآن الكريم إلى تحكيمه والاعتصام به، في قوله: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران:103)، وقولُه تعالى في سياق تأسيس قواعد المجتمع الإسلاميّ :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات:10)، وهذا المعنى تؤكدّه أحاديث النبي ρ كقوله :«لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا»[2]، وقوله ρ:
«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »[3]

وقد استنبط محمّد سعيد رمضان البوطيّ – رحمه الله- جملة من الدّلالات والعِبر من ميثاق الأخوّة الذي أرساه النبيّ ρ، ومنها: إن قيام الدّول لا يُمكن أن يتمّ إلا على أساس من وحدة الأمّة وتساندها، ولا يُمكن تحقيق هذا التّساند إلّا بعامل التآخي والمحبّة المتبادلة بين أفرادها، وهذا هو الأساس الذي اعتمده الرّسول ρ في سبيل بناء المجتمع الإسلاميّ والدّولة الإسلاميّة على رابطة الأخوّة المنبثقة من العقيدة الإيمانيّة، حيثُ يغدو جميع النّاس باختلاف مشاربهم وأجناسهم وألوانهم وأفكارهم جسَدا واحدا، وفي هذا زحزحةٌ للأنا في انتماءاتها الملّيّة والمذهبيّة والعرْقيّة، والمعيارُ الذي يحُكمُ الجميعَ هو العملُ والتّقوى.[4]

ومن دِلالات ميثاق الأخوّة النبويّ وآفاقه الاستيعابيّة في عالمنا اليومَ ضرورةُ التفات الدّول إلى تنميّة بذور الأخوّة بين أفراد المجتمع في إطار المواطنة تحقيقًا لمبدأ العدالة بين الأفراد، هذه العدالة لن يُمكن تحقيقُها إلا على أساس الأخوّة والمحبّة بين الأفراد، ومن تجليّاتها العدالة في توزيع الثّروة والمناصب وتوزيع السّكنات وإعطاء الحريّات والحقوق وفي هذا الصّنيعِ تجفيفٌ لمنابع الظلم والعداوة والكراهيّة وهو طريقٌ لسيادة نّظام اجتماعيّ عادلٍ.[5]

---

[1] وهبة بن مصطفى الزّحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط02، 1418، ج 10، ص 57.

[2] أخرجه مسلم عن أنس بن مالك، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، مسلم بن الحجاج القُشيريّ، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج04، ص 1983.

[3] أخرجه البخاريّ عن عبد الله بن عمر، كتاب المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، رقم: 2442.انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، ج 03، ص 128.

[4] محّمد سَعيد رَمضان البوطي، فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، مرجع سابق، ص 147 وما بعدها بتصرّف.

[5] فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، مرجع سابق، ص 148 بتصرّف.

ويُقدّم لنا الأستاذ بديع الزّمان سعيد النّورسي دروسًا عن ثمرات الأخوّة في المُجتمع، ويضربُ مثالا لذلك بمجموعة صُنّاع إبرٍ، قام كلّ واحد منهم بإنجاز عمله بمفرده، فكانت النّتيجة ثلاث إبر فقط لكلّ واحد منهم، ثمّ اتّفقوا تحت قاعدة توحيد المساعي وتوزيع الأعمال، فأتى أحدُهم بالحديد والآخر بالنّار، وقام الثّالث بثقب الإبرة، وقام الآخر بإدخالها في النّار، وقام الآخر بحدّها، فقام كلّ فرد منهم بعمل معيّن في ظرف معيّن فكانت حصيلة كلّ واحد منهم ثلاثمائة إبرة بدلا من ثلاث إبر.[1] ،فالتعاون على ما يحقّق مصلحةَ الجماعةِ والفرد أمر محمود، ويعدّ المكتوب الثاني والعشرون مبحثا مهمّا في هذا الباب- الأخوة-، إذ تطرّق فيه النّورسي لبعض معاني الآية الكريمة:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات:10) وأشار إلى بعض الأمراض التي تهدم هذه العلاقة كالعداء والبغضاء والحسد, وقدم بعض العلاجات، أو ما اصطلح عليه بالدّساتير، التي يُمكن استثمارها كحلول لمشكلات عالمنا المعاصر، ومنها – على رأي النّورسي - :

1. عدم الاعتقاد بأحقيّة المسلك الشّخصيّ ورفض كلّ المسالك الأخرى، وهذا ما يجسّده قول الشاعر:

وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عين السّخط تبدي المساويا[2]

2. قول الحقّ كلّه، مع عدم إذاعة كلّ الحقائق، لأن هذا قد يحقّق عكس المراد ونقيض القصد.

3- التدرّج في المعاداة، أي البدء بمعاداة النّفس التي هي أعدى أعداء الإنسان ومقاومتها وإصلاحها، وإن كانت هناك معاداة أخرى فيجب أن تكون لمن يعتدي علينا ويسلبَنا حقوقَنا [3].

إنّ الأخوة الإيمانية ضرورة حضارية لقيام الدّول وبقائها، وتحقيقُ استقرار الشّعوب اليومَ مرهونٌ بالتآخي بين أفراده، تآخي مفضي إلى العدالة والمساواة، حيث تتجسّد بين أفراده الوحدة الرّوحيّة التي أخبرَ بها النبي ρ في قوله: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسّهر والحُمّى.»[4]

إنّ الأخوّة الإيمانيّة تحليةٌ للنّفس بالفضائل والآداب من عطفٍ ورحمةٍ وتعاونٍ وتضامنٍ ومحبّةٍ، وتخليةٌ للنّفس من أمراضها وعِللها المختلفة، من حقدٍ وعداوةٍ وحسدٍ وعُجْبٍ وغرورٍ، وهذه التّزكيّة النّفسيّة للنّفوس والمجتمعات هي مقصد من مقاصد النبوّة، لقوله تعالى:(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة:02)، وقد أشار العلامة محمّد إقبال في ديوانه الأسرار والرّموز إلى هذا المقصد، وكونُ مقصود الرّسالة المحمديّة تمكينُ الحريّة والمساواة والأخوّة بين البشر، حيث يبدأ إقبال قصيدته عن الآلهة والأصنام التي عبدها البشرُ من دون الله (قيصر-كسرى-قيس-براهمن....)، ثمّ يتحدّث عن نبوّة سيدنا محمّد ρ ورسالته وكيف نشرَ المساواة والإخاء بين البشر وسلّم الحقّ لأصحابه ورفعَ العُبْدانَ وسلبَ الآمريّة والحاكميّة والكهنوتَ من السّلاطين، وبمولدِه مات العصرُ القديم، ومن أبيات القصيدة:

خطّ في العالمِ سطْرًا مُبدَعا أمّةٌ فاتحةٌ قد أبدعا
إخوةٌ فيها جميعُ المؤمنين طينُها حريّة في العالمين
المساواة لديها فطرةٌ ومن التّمييز فيها نـــــــــــــفرةٌ[5]

---

[1] بديع الزّمان سعيد النّورسي، اللّمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحيّ، دار سوزلر للنشر، ط1993،1م.، ص249بتصرف.

[2] البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

[3] بديع الزّمان سعيد النُّورسيّ، المكتوبات، تر: إحسان قاسم الصّالحي، مطبعة سوزلر، استنبول، ط1، 1992م ، ص342 وما بعدها.

[4] أخرجه البخاري عن النّعمان بن بشير، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم: 6011. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، ج 04، ص 2000.

[5] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز، مرجع سابق، ص 84.

ولا غرابةَ أن نجد الشّاعر محمّد إقبال وهو يُشاهد ما آل إليه أمر المُسلمين من تفرّق وتدابر واختلافٍ، فينشدُ مذكّرا لنا بسيرة سيّد البشر الذي وحّدنا وآخانا:

ألمْ يُبعثْ لامّتكم نبيٌّ يوحّدكم على نهج الوئامِ
ومصحفُكم وقبلتكم جميعا منارٌ للأخوّة والسّلام[1]

إنّ ميثاق الأخوّة الذي أرساه النبيّ ρ كانت له ثمرات جليلةٌ، في قلوب أصحابه، ميثاق أسّسه النبي ρ على المحبّة وإنكار الذّات وإيثار الآخر على النّفس، وفي سيرة سيّدنا محمّد ρ أنموذج حيٌّ لهذه الثّمرة، فقد ثبت في الصّحيح : «أنّ أناسا من الأنصار قالوا: يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ρ يعطي رجالا من قريش، المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشا ويتركنا وسيوفُنا تقطرُ من دمائهم، قال أنس بن مالك: فحدّثتُ ذلك رسول الله ρ ، من قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في فلّما اجتمعوا جاءهم رسول الله ρ، فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاءُ الأنصار: أما ذوو رأينا، يا رسول الله، فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منّا حديثة أسنانُهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر، أتألّفُهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به» فقالوا: بلى، يا رسول الله، قد رضينا »[2]

أليس من الجيّد اليوم في مُجتمعاتنا الإسلاميّة التّفكير الجدّي في تفعيل مبادىء الشّريعة الإسلاميّة في حياتنا المدنيّة، واستلهام ما في سيرة النبي ρ من مبادىء المؤاخاة بين الفُرقاء في الوطن الواحد، فليسَ عناك ما يدعو إلى الخوفِ من الإسلام:" فإنّ من مصلحتنا أن تُبنى الدّولة عندنا على أساس الإسلام ، وفي ترك ذلك خرابُنا ودمارُنا ،...ففيمَ الخوفُ من إلزام الدّول في البلاد الإسلاميّة بتنفيذ شرائع الإسلام وإقامة أحكامه، وهي كلُّها عدْلٌ وحقّ وقوّة وإخاء وتكافلٌ اجتماعي شامل على أساسٍ من الحبّ والتّعاون الكريم، إنّنا لن نخلُصَ من الاستعمار إلّا بالمناداة بالإسلام، وفي سبيل ذلك فليعمل العاملون."[3]

3.2. الأعمال السّياسيّة ومضامينها الاستيعابيّة –وثيقة المدينة نموذجا-

تزخرُ سيرة سيّدنا محمّد ρ بأعمال سياسيّة هامّة، كان لها دورٌ كبيرٌ في تغيير مجرَى الأحداث ورسم صورة طيّبة عن سماحة الإسلام ورسالته السّاميّة في تحقيق العدالة وإرساء قواعد السّلم العالمي، ونشر المحبّة في القُلوب وتأليف القلوب على الإسلام، واكتساب حلفاء وأنصار من الدّول البعيدة، وتجفيف منابع الصّراع والتوتّرات في ذلك الوقت بأسلوب الحكمة والبصيرة والرّأي السّديد، وللسّياسة معاني عديدةٌ، وجاء في المعجم الفلسفيّ في مصطلح السّياسة، في الفرنسيّة politique وفي الانجليزية politics وفي اللاتينيّة politiké ، وتعني تنظيم أمور الدّولة وتدبير شؤونها، وقد تكون شرعيّة مُستمدّة من الدّين، وقد تكون مدنيّة، مُستمدّة من الحكمة العمليّة، أو الحكمة السّياسيّة.[4]

---

[1] محمّد إقبال، صلصلة الجرس، ديوان محمّد إقبال الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ج01، ص 104,

[2] أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم: 1059.انظر: صحيح مسلم، مرجع سابق، ج 02، ص 733.

[3] مصطفى السّباعي، السّيرة النّبوية دروس وعِبرٌ، المكتب الإسلاميّ، بيروت، بدون تاريخ، ص 80.

[4] جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللّبناني+ مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط 1982، ج01، ص 679.

وعلى ضوء هذا المفهوم فتدبيرُ أمور الدّولة هو السّياسة، وتتّخذ معاني عديدة، "منها ما يكون بين بعض الدّول وبعض من المراسيم والعلاقات، ومنها ما يكون بين هذه الدّول من معاهدات وخِطط في أعمالها الخارجيّة، ومنها ما يكون بين الراعيّ ورعيّته، أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات ... ولكلّ معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث."[1]، وهذه المعاني كلُّها نجد لها حضورا كبيرا في دولة النبيّ ρ بالمدينة المنوّرة، وسنقف عند أهمّ عمَلَيْن منها، لما لهما من مضمون سياسيّ شكّل محورا كبيرا في صياغة مفاهيم الدّولة الحديثة ومفاهيم المواطنة، فالسّياسة الدّوليّة الرّاهنة، وما تمرّ به من مآزق تحتاجُ اليوم إلى استلهام الحلول وآليات الاستيعاب الدّاخلي والخارجيّ، كحلّ لمشاكل العالم اليوم العديدة، من حُروب وصراع بينيّ طائفيّ ومذهبيّ، وإبرام المعاهدات الدّولية، ومُشكلة الأقليّات وغيرها، وأبرز الأعمال النبويّة التي تجسّدُ الدّولة المدنية الحديثة ذات الأُفُق الاستيعابيّ، وثيقة المدينة

1.3.2.وثيقة المدينة:

كان أبرز الأعمال التي قام بها النبي محمّد ρ عند هجرته إلى المدينة المنوّرة صياغة دستور جامعٍ للمواطنين، تمّ تدوينُه فور الهجرة، وكانت المدينة المنوّرة مزيجا من أجناس وأعراقٍ وديانات مختلفة، قدْ يؤدّي تبايُنها واختلافُها إلى صراعٍ مُستقبليّ وعدم انسجامٍ، لا سيما وأنّ المسلمين حديثو عهد بالإسلام وكان الهدف من كتابة هذا الدّستور تنظيم الحياة المدنيّة بين مُختلف الطّوائف المُشكّلة للمجتمع المدنيّ (المسلمون- أهل الكتاب من اليهود والنّصارى، وغيرُهم) ، وقد تمّ هذا الميثاق في السّنة الأولى من هجرة النبي ρ ، وسنعرضُ أبرز البنود التي وردت فيه كما جاءت في كُتب السّيرة، ونستخرجَ منها الرؤية الاستيعابيّة في تنظيم المجتمع آنذاك، وبيان آفاق هاته الرّؤية في مجتمعنا الدّوليّ الرّاهن. وسنسير في عرْضِه وفق ما اختاره محمّد سعيد رمضان البوطيّ، بالتّركيز على أهمّ البنود، وأهمّها:

1- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمّة واحدةٌ من دون الناس. 2- هؤلاء المسلمون جميعا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم – الأسير - بالمعروف والقسط بين المؤمنين. 3- إنّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا -المثقل بالديون الكثير العيال- بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.

4- إن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم أو ابتغى دسيعه -ما يخرج من حلق البعير إذا رغا- ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. 5- لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن. 6- إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. 7- ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس. 8- لا يحل لمؤمن أقرّ بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو أن يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل. 9- اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين. 10- يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغُ – يُهلِكُ-إلا نفسَه وأهل بيته. 11- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

[1] عبّاس محمود العقّاد، عبقريّة محمّد، مؤسّسة هنداوي، مصر، ط 2017، ،ص 53.

12- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله. 13- من خرج من المدينة آمن ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم. 14- إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن برّ واتقى.[1]

هذه بعض البنود التي تضمنتها وثيقة المدينة، ومن البُنود البارزة التي يُمكن تجليتُها في هذا المقام، إعلاء رابطة الإسلام على الرّوابط العرقيّة والقوميّة والمذهبيّة، فالمسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمّة واحدةٌ، وهذا البُند أساسٌ في تدبير الاختلاف في عالمنا الإسلاميّ اليوم، وتدبير الصّراع النّاجم من الانتماءات المذهبيّة والعرقيّة، وهي انتماءات أثمرت الصّراعَ والحروب الأهليّة والطّائفيّة، ومثالها الرّاهن:(لبنان- سوريا- اليمن-ليبيا-العراق- الصّومال...)، وهي صراعات أدّت إلى تغذية النّزعة العُنصريّة، التي تُعرّفُ بأنّها: "مذهبٌ يفرّق بين الأجناس والشّعوب بحسب أصولها وألوانها، ويرتّب على هذه التّفرقة حقوقًا ومزايا، وهو مذهب المتعصّبين لعنصرهم أو لأصلهم العرقيّ"[2] ،وهي أيضا : نوع من الاستعلاء النّابع من شعور فئة بأنّها عنصر سيّد ثمّ ترجمة هذا الشّعور إلى واقع سياسيّ واجتماعيّ واقتصاديّ"[3]
فالآليّة الاستيعابيّة الأولى وفقَ هذا البُند هي إحلالُ الرّابطة الإسلاميّة كبديل لرابطة القوميّة والعُنصريّة، وهي آليةٌ تُسهم في فكَ النّزاعات والخَصومات بين الإخوة الأشقّاء، تجسيدًا لقوله تعالى :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات: 10)، ويعتبر محمّد إقبال من أبرز المفكّرين المعاصرين الذين أثاروا هاته الإشكاليّة، حيث دعا في أعماله إلى ضرورة تجاوز الرؤى العنصريّة الضيّقة التي تحتكم إلى اللون والجنس والعرق والمذهب، وضرورة إحياء روح الانتماء إلى الإسلام، ومن شعره في ديوان بيام مشرق:

رأيتُك لا تزالُ أسير طينٍ إلى تُرْكٍ وأفغانٍ تردُّ
أنا بشرٌ بلا لون وريحٍ وللتُّوران أو للهند بُعْدُ[4]

وفي ديوان الأسرار والرّموز يؤكّد إقبال على الرّابطة الإسلاميّة كحلّ للنزاعات في العالم الإسلاميّ، مُبيّنا أن المُراهنةَ على الانتماءات الجغرافيّة لا يُحقّقُ الوحدة المنشودة والسّلام بين دول العالم الإسلاميّ:

قطّعوا الأرحام بين الإخوة صيّروا الأوطانَ أسَّ الأمّة
قدّسوا الأوطانَ إعجابًا بها قسّموا الإنسان أسرابًا بها
طلبوا الجنّة في بئس القرار فأحلّوا قومَهم دار البوار
أنكر الإنسانُ وجهَ الإخوةِ وانتهتْ قصّة الإنسانيّةِ[5]

وفي قصيدة أخرى يؤكّد إقبال على أهميّة التّربية النبويّة للمجتمع الإسلامي وتكميلها لأفراده، من خلال قواعد الحبّ والإخاء التي أرساها النبي في وثيقة المدينة:

ما ارتباطُ الجمعِ أنّى يوصَفُ؟ قصّة أوّلها لا يُعْرفُ
إنّنا نبصرُ فرْدا في الجميع زهرةً نقطفُ في هذا الرّبيعْ
كلّ فردٍ بأخيه ائتلفا مثْلَ درٍّ في سُموطٍ أُلّفا
لفّهم في عيشهم مُعترك كلّ فردٍ بأخيه ممسكُ[6]

وقد عالجَ جمال الدّين الأفغاني في مجلّة العروة الوُثقى مُشكلة العنصريّة والعصبيّة والقوميّة

---

[1] فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، مرجع سابق، ص 150 وما بعدها بتصرّف.
[2] معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكُتب، ط 01، 2008، مادة " عنصريّة" ، ج 02، ص 1563.
[3] السّيد محمد عاشور، التفرقة العنصريّة، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، ط 1986، ص 03.
[4] محمّد إقبال، بيام مشرق، ترجمة: عبد الوهاب عزّام، مؤسّسة هنداوي، مصر، ط 2017، ، ص 45.
[5] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز ، مرجع سابق، ص 87-88.
[6] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز ، مرجع سابق، ص 76.

واعتبرها من أخطر الأمراض التي تُعاني منها الأمّة وتقف حائلا دون مدّ جسور التّواصل:" وكلّ فخار تكسبه الأنسابُ وكل امتياز تُفيده الأحسابُ لم يَجعل له الشارعُ أثرًا في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض، بل كلّ رابطة سوى رابطة الشّريعة الحقّة فهي ممقوتةٌ على لسان الشّارع، والمعتمِد عليها مذمومٌ والمتعصِّب لها مَلُومٌ، فقد قال ρ: ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية."[1]

ومن الآليات الاستيعابيّة التي تضمّنتها وثيقة المدينة إرساءُ قيمة التّكافل والتّضامن بين أفراد المجتمع الواحد، فهم جميعا مسؤولون في شؤون دنياهم وآخرتهم، يؤازرُ بعضُهم بعضا[2]، وهوما تضمّنه البُند الثالثُ فالمؤمنون لا يتركون من أثقلَ كاهلَه الدّين بل عليهم مُساعدتُه والتّكافلُ معه، ويُمكن إسقاطُ هذا البُند على واقعنا المعاصِر، من خلال ما تُعانيه بعضُ الدّول الإسلاميّة من مجاعة وفقرٍ وديون جرّاء الحروب، كما هو الحالُ في أرض فلسطين، فمن أوجَب الواجبات على المجتمع الدّولي الإسلاميّ تقديمُ المساعدات والإسهام في بناء المدارس والمستشفيات، وإرسال بعثات الإغاثة، وليسَ هذا صدقةً أو امتنانا بل هو الواجب الأخلاقيّ والإنسانيّ الذي تفرضُه الرّابطة الرّوحيّة، ناهيك عن ضرورة الالتفات إلى الفقراء والمحتاجين داخلَ الوطن الواحد، ومن صورِ هذا التّضامن، الإسهامُ في تزويج الفقراء، وقضاء ديونهم وفتح مشاريع عمل ومؤسّسات صغيرةٍ لهم تجنُّبا للتسوّل والعطالة، وهذا عملٌ من شأنه أن يؤلّف بين القلوب وينشرَ المحبّة ويقضيَ على العداء والكراهيّة، ويطهّر القلوبَ والنّفوس ويزكّيَها، لقوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (التّوبة: 103)، وفي هذا الصّنيعِ النّبويّ أفقٌ اقتصاديّ،يتمثّل في تحريك عجلة التّنميّة في البلاد الإسلاميّة بالقضاء على التّفاوت الطّبقي وتحقيق روح المساواة، بإشراك جميعِ المواطنين في العمل الإيجابيّ، بناءً لمدينة فاضلةٍ يسود فيها العدلُ وتتحقّقُ المساواة، ومن جماليات رسالة النبي ρ وآفاقها الاقتصادية، تخصيص جزء من الزّكاة لمن أثقلَ كاهلَه الدّينُ، لقوله تعالى:(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (التّوبة: 60)، والغارمون في الآية جزء من طبقةٍ فقيرةٍ من المُجتمع، أولاها النبي ρ عنايةً في وثيقة المدينة المنوّرة. وفي عالمنا الإسلاميّ المعاصر يُعتبر الفقرُ أبرز المشاكل والأمراض التي تعاني منها الأمّة، نظرًا لما يؤدّي إليه من أمراضٍ نفسيّةٍ وآفاتٍ اجتماعيّة وانحرافاتٍ سلوكيّةٍ، ناهيك عن إسهامه في ارتفاع معدّل الأميّة والجهل، ويُمكن أن يكون صنيعُ النبيّρ كأبرز الحلول والآليات لاستيعاب هذه الفئة ورؤية اقتصاديّة نبويّة لمعالجة مشكلة الفقر.

ومن الآليات الاستيعابيّة التي تضمّنتها وثيقة المدينة حريّة المعتقد فللمسلمين دينُهم ولليهود دينُهم، وهي قاعدة أساسيّة أرساها الوحي الشّريف في قوله تعالى:(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة: 256)،وهي قاعدة يمكن استثمارُها في واقعنا الرّاهن، نظرا لوجود أقليّات غير مُسلمةٍ في البلد الإسلاميّ، وهو ما يُصطلحُ عليهم بأهل الكتاب، وقد كفلت لهم هاته القاعدة الحريّة التّامّة في إقامة شعائرهم وممارستها في الدّولة الإسلاميّة، وهو أُفقٌ حضاريّ وإنسانيّ وميثاقٌ عالميّ، كان لسيّدنا محمّد ρ فضلُ السّبقِ فيه، وهو ميثاق يُحتّم على المُسلمين عدم التعرّض بأيّ شكلٍ من الأشكال للآخر أو إهانته أو إهانة دينه ومعتقدِه أو سبّهِ، وهو ما نهى عنه الشّارعُ الحكيم:(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ) (الأنعام: 108)، بل من واجِب الدّول

---

[1] جمال الدّين الأفغانيّ، العُروة الوُثقى، مؤسّسة هنداوي، مصر، ط 2017، ص 42-43.

[2] انظر:فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، مرجع سابق، ص 153 وما بعدها بتصرّف.

الإسلاميّة أن توفّر حمايةً لأهل الكتاب ورعاياها الأجانب بموجَب تعاليم النبيّ ρ ،وفي هذا الصّنيع النّبوي صورةٌ نورانيّة تجسّدُ مبدأ قبول الآخر واستيعابه وعدم رفضه، وتصحّحُ الصّورة النّمطيّة السيّئة عن الإسلام في ظلّ خطاب الكراهيّة والعداء، وعلوّ ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب، والتّرويج السّيّء لصورة الإسلام وكونُه قائما على السّيف والقوّة،" فالحريّة الدّينيّة التي كفلها الإسلامُ لأهل الأرضِ لمْ يُعرفْ لها نظيرٌ في القارات الخمس، ولم يحدث ان انفرد دينٌ بالسّلطةِ، ومنحَ مخالفيه في الاعتقاد كلَّ أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلامُ."[1]

وفي كتاب الدّعوة إلى الإسلام يشيدُ توماس أرنولد بالطّرق السلميّة التي حضّ عليها القرآن الكريمُ في معاملة غير المسلمين واحترام عقائدهم وحرّياتهم، مُستعْرضًا في ذلك جملة من الآيات القُرآنيّة التي تؤكّد حريّة المعتقد، ومنها قاعدة عدم إكراه الآخر على اختيار دينه[2]

وعلى ضوء التّعاليم النّبويّة المحمّدية، ووفق ميثاق المدينة المنوّرة، من واجِب المسلمين الاقتداء بسيرة سيّد البشر ومدّ جسور التّواصل مع الآخر الملّي، في أطر مختلفةٍ كالحوار والنّقاش والتّعاون والاحترام المُتبادل تحقّقا بأخلاق الإسلام وتمثّلًا لمبادئه، وفي هذا إسهامٌ فعليّ في نشر السّلام والمحبّة، والتّعاون جميعا في وقفِ الحروبِ والصّراعات الدّولية، من خلال وساطات السّلام ونبذِ العُنف وخطابات الكراهيّة، مع ضرورة الاحتفاظ والاعتزاز بقيم الإسلام ومبادئه، واحترام مبادئ الآخر واختياراته في الوقتِ نفسِه.

ومن الآليات الاستيعابيّة التي تضمّنتها وثيقة المدينة هو الرّجوع إلى الله ورسولِه عند الاختلاف" باعتبار أنّ الحكمَ العدلَ الذي لا يجوز للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره، في سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه، وهو ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله. ومهما بحثوا عن الحلول لمشكلاتهم في غير هذا المصدر فهم آثمون، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة."[3]

والسّؤال المركزيّ، ما معنى هذه القاعدة، وكيفَ يُمكن أن تكون أفُقًا استيعابيّا، وما هي تجليّاتها في راهننا اليوم؟

إنّ الرّجوع إلى الله ورسولِه عند الاختلاف، قيمةٌ أرساها الوحيُ في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النّساء: 59)، وقوُله تعالى:(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) (الشّورى :10)، وجاء في تفسير الآية الأولى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) :" فَإِنْ تَنازَعْتُمْ أنتم وأولو الأمر، أو بعضكم مع بعض- أي: اختلفتم في حكم شيء من أمر الدّين فلم تعلموا حكمه، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ أي: إلى كتاب الله، وَإِلى الرَّسُولَ في زمانه، أو سنّته بعد موته، فإن لم يوجد بالنّص فبالقياس. فالأحكام ثلاثة: مُثبت بالكتاب، ومُثبت بالسنّة، ومُثبت بالردّ إليهما على وجه القياس."[4]

دعا النبيّ ρ كافّة المواطنين من أهل المدينة المنوّرة – المسلمون وغير المسلمين- إلى ضرورة الرّجوع إلى الله ورسولِه عند الاختلاف، والرّجوع إلى الله تحكيمٌ لما أمر وشرّعَ، والرّجوعُ إلى

---

[1] محمّد الغزاليّ، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الامم المتّحدة، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، ط 2005، ص 75.

[2] انظر: توماس أرنولد، الدّعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النّهضة المصريّة، مصر، ط 1971ن ص 29. وانظر أيضا : المستشرقة زيغريد هونكه ، الله ليس كمثله شيء الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب، ترجمة: محمّد عوني عبد الرّؤوف، المركز القوميّ للتّرجمة، مصر، ط 2010،، ص 81 بتصرّف.

[3] انظر: فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، مرجع سابق، ص 154 وما بعدها بتصرّف.

[4] ابن عجيبة الحسني، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان،ط الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ط 1419 هـ ج 01، ص 519.

الرسولρ باعتباره قاضيا ومُشرّعًا، وفي هذه القاعدة – كما يرى طه عبد الرّحمن- تثبيتٌ لمبدأ كونِ الحاكميّة والعادليّة لله وحدهُ، وبهذا يتّخذُ العدْلُ في هذا السّياق مفهوما ائتمانيّا صريحًا، وهو في مضمونه تخليقٌ لإرادة أهل المدينة كلّهم تخليقٌ يحقّق ما يُمكن تسميتُه بالعدل التَّوحيديّ أو العدْل الموحّد، ومن نتائج هذا العدل التزامُ الطّرفين – المسلمون وغير المسلمين – بالتّوحيد، فالفرقُ بين الطّرفيْن أنّ المسلمين المؤمنين موحّدون بشعورهم وإرادتهم، وغيرُ المسلمين موحّدون بغير شعورٍ، ولا غرابة في ذلك، فالله يقولُ: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)(الإسراء:44)[1]
وهذا المضمون التّوحيديّ عبّر عنه شِعْرا محمّد إقبال في قصيدته عن سورة الإخلاص التي تُعتبرُ خلاصةً للتّوحيد وجامعةً للعبيد، ففي ديوانه الشّعريّ الاسرار والرّموز، يقفُ إقبال بسرد رؤيا – حلم- رأى فيها الصّديق أبابكر τ في المنام، وسؤال إقبال له عن دواء أمراض أمّتنا، وجوابُ الصّديق له أنّ الدّواء في سورة الإخلاص، فهيَ بُرْءٌ لكلّ سقم:

زهر لي الصّديقُ في الحُلم مُزهرا منه تُراب القدمْ
قلتُ يا صفوة أصحاب الصّفاء مطلع الدّيوان من أهل الوفاءْ
بك قرّ الأسّ في بنياننا فانظرنْ ما الطبُّ في أدوائنا
قال: حتّام أسيرُ الوَهَمْ سورةُ الإخلاص برءُ السّقَمْ
نفسٌ في كلّ صدْرٍ جائلُ وهي للتّوحيدِ سرّ هائلُ
فاجلُ هذا السرّ في كلّ الفعالْ ولتكُن منه مثالًا للجمالْ
الذي سمّاك عبْدًا مُسلما بك للوحدة في الدّنيا سما
قلتُ أفغانٌ وتُركٌ وعجمْ لم تزلْ عمّا تعودتَ القدمْ
طهرنّ الحقّ من هذي السّماتْ اقصدِ البحرَ وخلّ القنواتْ
يا أسيرًا لسماتٍ ويحكا ! قدْ بعُدتَ اليوم من دوحتكا
أبدلِ الوحدة بالتّثنيةِ لا تُقطّعْ صاحِ حبْل الوحدةِ
عابدَ الواحد وحّد واهجرنْ كلّ تفريقٍ وللحقّ ارجعنْ
قدْ علا قومُك عن لونٍ ودمْ وعلا أُسودُه حمرَ الأممْ
اتركنّ عمّا وأمّا وأبا وكسلمانَ إلى الدّين انسبا
إنْ جعلتَ الدّم ركنَ الملّة صدّعتْ دعواك جمعَ الإخوةِ
ما من الأنسابِ يقوى وصلُنا ليس من رومٍ وعُرْبٍ أصلُنا
إنّما حبّ الحجازيّ الحبيبْ قد حبانا ذاكم الوصلَ القريبْ
جدّد بنا الدّهر سيرتَهْ مذْ حوتْ أعراقُنا نشوتهْ[2]

وفي هاته القصيدة الإقباليّة بيانٌ لأهميّة رابطة التّوحيد في المجتمع، وهنا يظهر التّوحيد كإكسيرٍ جامعٍ للأفراد على صعيد واحدٍ وقبلةٍ واحدةٍ وهي الله الحقّ جلّ جلالُه، لذا يدعو إقبال على لسان أبي بكر الصّديق τ إلى ترك الانتسابِ إلى الذّات في تجلّياتها المختلفة (المذهب- والعرق- والوطن-) وضرورة الاجتماع حول مركز واحدٍ موحّدٍ وهو الحقّ جلّ جلالُه، وهذا هو المعنى الذي أراد النبي ρ إرساءه بدعوته إلى العودة والاحتكام إلى الله، لذا يُشبّه محمّد إقبال هذه المركزيّة- التّوحيد- بالبحر العظيم، جاعلًا غيرَه مجرّد قنوات، مع تأكيد محمّد إقبال أنّ في وجود الانتماءات المليّة والعرقيّة واللسانيّة ضياعٌ للوحدة وتفريقٌ وتفرّق، بينما في التّوحيد تجتمع المتفرّقات على قِبْلةٍ واحدة، وهي الحقّ جلّ جلالُه، كما عبّر محمّد إقبال عن الانتماءات برابطة

[1] انظر في هذا : طه عبد الرحمن، السّيرة النّبويّة والتّأسيس الأخلاقيّ، مرجع سابق، ص 327 وما بعدها بتصرّف.
[2] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز، مرجع سابق، ص 107 وما بعدها – مع تصرّف في اختيار الأبيات.

القرابة (العمّ والنّسبْ والأبْ)،داعيا المُسلم لأنْ يتشبّه بسلمان الفارسيّτ في انتمائه إلى رابطة التّوحيد، فالقرابةُ من دمٍ ونسبْ هادمةٌ للإخوّة مُفرّقةٌ للاجتماع، بينما التّوحيد ينظمُ جميع الأفراد في خيط واحد كالعقد، وهذه من جماليات سيّدنا محمّد ρ باعتباره أعظم دلّال على جمال الله وواحديته، ومن هنا يتبيّن لنا أن الرّجوعَ إلى الله ورسوله، رجوعٌ إلى ميثاق التوحيد والرّبوبية، أين يجتمع جميع البشر على صعيدٍ واحد وتحت مظلّة واحدة وهي الربوبيّة التي أشهدنا الله إيّاها في عالم الذرّ حين قال: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف: 172)

وكأنّ النبي ρ في ميثاق المدينة حين دعا إلى ضرورة الرّجوع إلى الله والرّسول عند الاختلاف أراد أن يُذكّر الجميع بأنّ هناك دوما مركزٌ للاجتماع والوحدة رغم هذا الاختلاف الظّاهر، فإن كانَ هناك تبايُنٌ عرقيّ أو مليّ أو لسانيّ في هذا الفضاء الفانيّ، فهناك مساحة أكبر للاجتماع والوحدة حيثُ فضاء الله الرّحبْ ورحمته اللانهائيّة تحت كلمة لا إله إلّا الله محمّد رسول الله.

✓ خاتمة:

في ختام هذه الورقة المتواضعة أمكن لنا أن نخلصَ إلى مجموعة من النّتائج، أبرزها:

1.أزمة العالم الحديث أزمةٌ أخلاقيّة روحيّة، من خلال هيمنة الكمّ وعالم الأشياء، وسعي الحضارة الحديثة إلى تحقيق السّعادة الماديّة فقط، وزحزحة العالم الميتافيزيقي الغيبيّ، ممّا أفرز قيمًا ماديّة بحتة، وهو ما جعلّ الوسائل في حُكم الغايات، فتمّ توظيفُ الصّراع والحروب والعُنصريّة والقوّة، وهي قيمٌ أفرزت عالمًا مشوّها وخلّفتْ أمراضًا روحيّة خطيرة من عُجْبٍ وغرور واستعلاء وتكبّر، وتمّ بموجب هذه القِيم إبادة الإنسانيّة وقتل الأطفال والشّيوخ وهدْم المدارس والمساجد والمستشفيات ونهبُ الثّروات.

2.واقِعُ الفعْل وردّ الفعل وغياب الفاعليّة والعمل الإيجابيّ، وهو ما يلخّصه الصّراع بين العالم الغربيّ والإسلاميّ، فهناك عالمٌ غربيّ فاعلٌ في السّاحة الدّوليّة يسعى إلى فرض وجودِه وهيمنته بمختلف الوسائل المتاحة المشروعة وغير المشروعة، وفي الطّرف الآخر عالم إسلاميّ مُنْفعِلٌ، يُجابِه الامتداد والنّفوذ الغربيّ مُسْتنزِفًا في ذلك طاقته الماديّة والمعنويّة وجُهدَه وعُمرَه الزّمنيّ على حِساب تنميته الدّاخليّة، وهو ما أفرَز أوطانا إسلاميّة مُتخلّفة، تُعاني مُشكلات الفقر والأميّة والأمراض النّفسيّة كالجُبْن والوهم والآفات الاجتماعيّة من مُخدّرات وبطالة وتسوّل، ونزاعات طائفيّة ومذهبيّة، وغيرها.

3.وجودُ مجتمع المثال –المجتمع النبوي – وما فيه من أعمال إيجابيّة وقوّة روحيّة ورؤى سياسيّة واستيعابيّة، بفضل رسالة نبي الإسلام ρ وسياسته الرّشيدة يُعتبرُ بابَ أملٍ للإنسانيّة المتصارعة اليوم على الحدود والنّفط والماء والأفكار والمذاهب والقناعات، وهذه التّعاليم النّبويّة هي تعاليمٌ إلهيّة بالدّرجة الأولى، باعتبار مصدرِها، ممّا يُعطي للتّعاليم المحمديّة صِبْغة إنسانيّة عالميّة كونيّة، باعتبار مضمونها التّوحيديّ، فالله ربُّ العالمين، كلّ النّاس منه وإليْه، واختلافُنا حكمةٌ أجراها لنتواصَل ونتعارفَ ونتعاوَنَ، ويحبّ بعضُنا بعضًا.

4. تنوّعَتْ أعمال النبي ρ بين أعمالٍ دينيّة كإقامة المسجد وسياسيّة كميثاق المدينة المنوّرة، واجتماعيّة كالمؤاخاة بين المُهاجرين والأنصار، بل وحتّى بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، إضافةً إلى أعمال جليلةٍ أُخرى، وهذه الأعمال جميعا تعتبرُ أسسًا لقيام الدّولة المدنية الحديثة القائمة على ميثاق المواطنة، فالجميعُ أمام القانون كأسنان المشط، ولا اعتبار للون أو دينٍ أو مذهبٍ أو

عِرْقٍ أو جنسٍ أو لسانٍ، وهو ما نجح فيه النبيّρ في المدينة المنوّرة من خلال استيعاب الجميع، فكانت سياستُه منهجًا رشيدًا لتدبير الاختلاف في الوطن الواحد.

5.مركزيّة الوحي والتّعاليم الإلهيّة وسيرة النبي ρ في المجتمع الدّولي المعاصر ودورُها في تدبير الاختلاف العالمي، والانتقال من وَهْم الصّراع إلى فضاء الوحدة والسّلام، فأثبتتْ التّجربة الإنسانيّة والتّاريخيّة أنّ المجتمع الإنساني لا يُمكن أن ينتظمَ من غير شريعةٍ ووحْي إلهيّ، وهو ما أكّد عليه محمّد إقبال –رحمه الله- في مختلف أعماله الشعريّة، ومن خلال تجربته وحياته بين العالمَيْن الإسلامي – الهند وباكستان - والعالم الغربيّ – انجلترا وألمانيا- وكذا أسفاره ورَحلاته بين مُختلف دول العالم الإسلاميّ، ممّا جعلَه يعرفُ بدقّة قوانين النّظام الإنسانيّ والعالميّ، وهو ما نجدُ له حضورا في مختلف أعماله، ومثالُه، قصيدته في ديوان الأسرار والرّموز التي ضمّنها قانونًا، جاء عنوانُه:" في بيان أنّ الأمّة لا تنتظمُ من غير شريعةٍ، وشريعةُ الأمّة المحمديّة القرآن":

سيرةُ المسلم شرْعٌ وكفى ذلكم باطنُ دين المُصطفى
بانتظام الصّوت تعلو النّغمةُ وهْيَ من دون نظامٍ ضجّةٌ
الكتابُ الحيّ والذّكرُ الحكيمْ حكمةٌ في الدّهر تبقى لا تريمْ
إنّ فيه سرَّ تكوين الحياهْ يستمدُّ النّكسُ أيدًا من قواهْ
ذا بلاغٌ آخِرٌ للمرسلينْ قدْ تلاهُ رحمةٌ للعالمينْ
حكَمَ جميعًا الدّنيا عدْلُهُ عرْشَ جمٍّ وطئتْهُ رجْلُهُ
مُدُنًا قد شيّدتْ هبْوَتُه ورياضا أنبتتْ زهرتُهْ
شَرعَةُ الحقّ نظامُ الأممْ ومن النّظمِ دوامُ الأممْ
إنّ دينَ المُصطفى دين الحياهْ شرْعُه للنّاس قانون الحياهْ
طينَة المسلم درٌّ يا بُنيّْ ماؤها والنّورُ من بحر النبيّْ[1]

إنّ في كلمات محمّد إقبال دعوةٌ إلى الإنسانيّة المعاصرة إلى ضرورة الاحتكام إلى التّعاليم الإلهيّة كوسيلة لتدبير الاختلاف العالميّ الرّاهن، وكأُفُق استيعابيّ يلتقي فيه الجميع على مبدأ التّعاون والتّعارف مع احتفاظ كلّ طرفٍ بخصوصيته الملّيّة والمذهبيّة والعرْقيّة والجُغرافيّة، وهو الحلّ الوحيد لتحقيق السّلام العالميّ، والضّامن الوحيد لتحقيق المحبّة بين الشّعوب في ظلّ هيمنة الكمّ والمنفعة والتّراجُع الكبير للقيم الرّوحيّة.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطّيبين الطّاهرين وصحبِه أجمعين

[1] محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز،ترجمة: عبد الوهّاب عزّام، مرجع سابق، ص 90 وما بعدها بتصرّف. وقد استعملتُ التّوثيق في الخاتمة نظرًا لأهميّة ما طرحه العلّامة محمّد إقبال.

✓ **قائمة المصادر والمراجع:**

- ابن عجيبة الحسني، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان،ط الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ط 1419 هـ .
- أبو الحسن الندوي، السيرة النّبوية، دار ابن كثير، دمشق، ط12، 1425هـ.
- أحمد بن حنبل،تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة،ط 01، 2001.
- أحمد حرّان تاج السرّ، حاضر العالم الإسلاميّ، إشبيليا للنّشر والدّعاية والإعلان، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط01، 2001.
- أنيماري شيمل، وأنّ محمّداً رسولُ الله – تبجيل النبيّ في التّديّن الإسلاميّ ، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط01، 2017.
- بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، استنبول،ط3، 1993م.
- بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، استنبول، ط 1،،1993م.
- بديع الزّمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، مطبعة سوزلر، استنبول، ط01، 1998م.
- بديع الزّمان سعيد النّورسي، اللّمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحيّ، دار سوزلر للنشر، ط1993،1م.
- بديع الزّمان سعيد النُّورسيّ، المكتوبات، تر: إحسان قاسم الصّالحي، مطبعة سوزلر، استنبول، ط1، 1992م ..
- توماس أرنولد، الدّعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النّهضة المصريّة.
- توماس كارليل، الأبطال، ترجمة: محمّد السّباعيّ،المطبعة المصريّة بالأزهر، مصر، ط 03، 1930.
- جلال الدّين الرّومي، فيه ما فيه، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار الفكر المعاصر- بيروت + دار الفكر- دمشق، ط01، 2002.

- جمال الدّين الأفغانيّ، العُروة الوُثقى، مؤسّسة هنداوي، مصر، ط 2017.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللّبناني+ مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط 1982.
- زيغريد هونكه ، الله ليس كمثله شيء الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب، ترجمة: محمّد عوني عبد الرّؤوف، المركز القوميّ للتّرجمة، مصر، ط 2010.
- السّيد محمد عاشور، التفرقة العنصريّة، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، ط 1986.
- طه عبد الرحمن، السّيرة النّبويّة والتّأسيس الأخلاقيّ، مركز نهوض للدّراسات والبحوث، ط 01، 2024، الكويت+ لبنان.
- طه عبد الرّحمن، سؤال الأخلاق مُساهمة في النّقد الأخلاقيّ للحداثة الغربيّة،المركز الثّقافي العربيّ، المغرب،ط01، 2000.
- عبّاس محمود العقّاد، عبقريّة محمّد، مؤسّسة هنداوي، مصر، ط 2017.
- فريد الدّين العطّار النّيسابوريّ، منطق الطّير، ترجمة: بديع محمّد جمعة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط 2002.
- مايكل هارت، الخالدون مائة أعظمُهم محمّد رسول الله، ترجمة: أنيس منصور، المكتب المصريّ الحديث، بدون تاريخ.
- المباركفوريّ صفيّ الرحمن، الرّحيقُ المختوم، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطر، بدون تاريخ.
- محمّد إقبال، تجديد الفكر الدّيني في الإسلام ترجمة: محمّد يوسف عدس،دار الكتاب المصري+ دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ط2011.
- محمّد إقبال، ديوان الأسرار والرّموز،ترجمة: عبد الوهّاب عزّام،مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، ط 2012.
- محمّد إقبال، ديوان محمّد إقبال الأعمال الكاملة، ترجمة: سيّد عبد الماجد الجوريّ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 03، 2007.
- محمّد إقبال، بيام مشرق، ترجمة: عبد الوهاب عزّام، مؤسّسة هنداوي، مصر، ط 2017.
- محمّد بن إسماعيل البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط01، 1422هـ.
- محّمد سَعيد رَمضان البوطي، فقه السّيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، دار الفكر،دمشق،ط 25، 1426 ه.
- محمّد الغزاليّ، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الامم المتّحدة، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، ط 2005.
- محمّد الغزاليّ، فقه السّيرة ،دار القلم، دمشق، سوريا، ط 01، 1427 ه.
- محمّد فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ، دار الكتب المصريّـــة، ط 1364 ه.
- مسلم بن الحجاج القُشيريّ، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- مصطفى السّباعي، السّيرة النّبوية دروس وعِبرٌ، المكتب الإسلاميّ، بيروت، بدون تاريخ.
- معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكُتب، ط 01، 2008.

- وهبة بن مصطفى الزّحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط02، 1418.
- ويل ديورانت، قصّة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرون، دار الجيل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،1988 م.

.